اللقاء الثالث عشر من لقاءات التفسير في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء الخامس عشر: سورة الإسراء
الآيات 1-8

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) /http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله عز وجل حمدًا طيبًا مباركًا ونسأله سبحانه أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا اللهم آمين.

نتدارس اليوم مطلع سورة الإسراء، هذه السورة العظيمة التي أتى فيها خبر الإسراء بنبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، وما فيه من دلائل عظمة الله، وما فيه من دلائل ارتباط النبي الكريم بإخوانه الأنبياء الذين سبقوه، صلى الله عليهم جميعًا وسلم وألحقنا بهم وجعلنا من أتباعهم والشاهدين على صدقهم اللهم آمين.

بدأت السورة بقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} والافتتاح بكلمة التسبيح قد يثير في النفس أن هناك كلام لابد من تنزيه الله تعالى عنه، وهو في الحقيقة يؤذن بأن هناك خبرًا عجيبًا يستقبله السامعون، يدلهم على قدرة الله.

والمقصود هنا أن حال ظهور ما يدل على عظيم القدرة يزيل الشك والإشراك، فلابد أن ينطق السامع المتأمل بتسبيح الله، يعني لما يرى الأمر العجيب يقول سبحان الله فينزه الله عن العجز، كأنه يقول هذا الأمر الذي رأيت فيه عظمة قدرة الله يزيل الشك وينزه الرب ويصرف عن النفس الشر.

قال: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} ففيه إشارة لرفعة قدر النبي صلى الله عليه وسلم، وإثبات أنه رسول، وأنه أوتي من دلائل الصدق مالا يقبل الإنكار.

فقد كان إسراؤه عليه الصلاة والسلام إطلاعًا له على غائب من الأرض وعلى ما في السماء، والغائب عنه في الأرض هو المسجد الأقصى، والذي في السماء هو الخبر المعروف بحادثة الإسراء.

{الَّذِي أَسْرَى} والمقصود به: سار بالليل لأن السرى خاص بسير الليل، و {أَسْرَى بِعَبْدِهِ} تفيدنا أن الله كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه، الله لم يقل سرى بعبده إنما {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} إشارة إلى المعية وهذا كان ليلا؛ لأن نفس السرى يكون خاصا بالليل، وقيل ليلا: من أجل أن يعلم أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، وفيه أيضا تأكيد على أنه في الليل، فهذا فيه إشارة إلى أن الإسراء به خارق للعادة؛ لأنه قطع هذه المسافة في جزء ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمسجد الحرام هو الكعبة والفناء المحيط بالكعبة وكل منطقة الحرم.

وسميت حرما؛ من الحرام الذي يكون حرام فيه أن يستعمل في غير طاعة الله فحرام بمعنى ممنوع استعماله غير الاستعمال الذي يناسبه.

{مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} فهو كما هو معلوم أول بيت بني، وبناه إبراهيم عليه السلام.

{إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} وهو المسجد المعروف "ببيت المقدس" والأقصى بمعنى الأبعد والمراد هنا أقصى بمعنى من جهة بعده عن مكة، فأكد أن هذا المسجد الأقصى البعيد لترى هذه الآية وأن شأنك خارق للعادة؛ لأنه قطع مسافة طويلة في بعض ليله، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس كما أن المسجد الحرام المقصود به مسجد مكة وهذا معروف كما في حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((**لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثَلاثَةِ مَساجِدَ: المسجدِ الحرامِ، ومسجدِ الرَّسُولِ، ومَسجِدِ الأقْصَى**)) أخرجه البخاري ومسلم.

وهنا نرى عجائب من الفوائد في هذه الجملة القرآنية {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}.

1 – أن هذه المسافة الطويلة قضاها النبي في جزء من الليلة.

2– الإشارة أن الله تعالى يجعل هذا الإسراء دليل على أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم عليه السلام.

وقد صدر ذلك من المسجد الحرام إلى ما بعده من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس، ثم يعود من أسري به إلى المسجد الحرام، فكأنه يقال ويعود الشرع إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكة، فكما أن إبراهيم عليه السلام من مكة انطلق بالدعوة والتوحيد ثم كان هذا فرعه في بيت المقدس ثم عاد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم في مكة.

ونجد في سورة الإسراء كثير من الآيات التي هي بمثابة الآيات الجامعة للتشريع مثل:

قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} الإسراء:23.

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} الإسراء:33.

وقوله تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ} الإسراء:35.

قوله تعالى: { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} الإسراء:152.

وقوله تعالى: { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} الإسراء:35.

هذا إشارة أن هذا الدين متفق مع الأديان في هذه الأصول العظيمة وهو الذي سيبقى وتنفذ أحكامه.

والمسجد الأقصى في أصله أيضًا هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام، كما ورد في الصحيحين عن أبي ذر يقول: سألت رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– عن أول مسجد وضع في الأرض؟ قال: المسجد الحرام، قلت : ثم أيُّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاما.

هذا الخبر يبين أن المسجد الأقصى من بناء إبراهيم، لأن أربعون سنة هذه ستكون في حياة إبراهيم عليه السلام وقد قرن ذكره بالمسجد الحرام هذا والله اعلم.

والمسجد الأقصى تعرض لأحداث كثيرة كما سنرى أدت إلى خرابه ثم بنائه ثم خرابه وهكذا.

وهذا المسجد الذي بناه إبراهيم عليه السلام، هو الذي عندما عاد داوود وسليمان عليهما السلام توخيا أن يضعا عليه الخيمة ويبنيا هناك محرابهما، فداوود لما عاد إلى بيت المقدس وضع محرابه في مكان معين، وأوصى ابنه سليمان أن يبني عليه المسجد والذي يعبرون عنه بالهيكل، والذي يظهر أن هذا إنما جاء بالوحي، و أن هذا المكان الذي كان فيه إبراهيم عليه السلام، وقد انتابه التخريب ثلاث مرات:

خربه بخت نصره ملك بابل وهذا قبل أن يأتي المسيح بأكثر من خمسمائة عام ثم جدده اليهود تحت حكم الفرس.

والثانية خربه الرومان بعد حرب طويلة سيأتينا إن تيسر الكلام عنها وبعد أن قتلوا الكثير من اليهود وعفا آثاره فلم تبق منه إلا الأطلال.

والثالثة لما تنصرت ملكة الروم وهي أم ملك الروم (البيزنطيين) وأصبحت متصلبة في النصرانية ووقع بقلبها بغض اليهود معتقدة أنهم قتلوا المسيح، فزارت بيت المقدس فأمرت أن يزال حتى أطلال ما يسمى بهيكل سليمان، وأمرت أن تبنى كنيسة في المكان الذي يزعمون أنه قبر المسيح وسمتها كنيسة القيامة، وجعلت موضع المسجد الأقصى مرمى مزبلة البلد وقمامتها، وهذا مما عرفه المسلمين فإن عمر لما ذهب لأخذ مفاتيح القدس وجد موضع المسجد مزبلة، فقد قال عمر لبطريق لهم: دلني على مسجد داوود ولما فتح انحدر الزبالة على درج الباب وتجشم عمر رضي الله عنه حتى دخل فقال: الله أكبر هذا والذي نفسي بيده مسجد داوود الذي أخبرنا النبي أنه أسري به إليه ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسوا ذاك المكان ومضى عمر نحو محراب داوود فصلى فيه ثم ارتحل من بيت المقدس.

على كل حال لم يبنِ عمر في ذلك الوقت بيت المقدس إنما بني المسجد في زمن عبد الملك بن مروان بني على قبة الصخرة وعمر المسجد الأقصى.

المقصود أن هذا المسجد العظيم قد تعرض للتخريب وسيتبين لماذا تعرض لذاك التخريب.

قال الله عز وجل: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} وهذه صفة لبيت المقدس أن الله عز وجل بارك حوله، والبركة نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة، فالصلاة في ذلك المسجد فيها وفرة الثواب للمصلين وفيه إجابة دعاء الداعيين، أسأل الله أن يرزقنا صلاة فيه قبل الممات.

وقد وصف المسجد الحرام بأعظم من ذلك بأنه أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين.

لماذا هنا ذكر أن المسجد الأقصى الذي باركنا حوله في مقابل أن المسجد الحرام لم يذكر؟!

أما بركة المسجد الحرام فقد كانت مشهورة وخصوصا للعرب معلومة، وأما المسجد الأقصى فإن الناس قد تناسوا ذلك. فإن نظرنا للعرب فقد كان عندهم جهل والنصارى قد محو أثره من كرههم لليهود، وإن نظرنا لليهود فقد ابتعدوا ويئسوا من العودة إليه، فذكر ببركته والله أعلم.

فكان هو مبارك وما حوله مبارك، وبركته المقصود بها البركة الدينية وواضعه إبراهيم عليه السلام، وكان مكان للأنبياء داوود وسليمان ومن بعدهم من أنبياء بني إسرائيل، ثم حلول عيسى عليه السلام فيه و إعلانه الدعوة فيه وفيما حوله، ودفن فيه كثير من الأنبياء وقد ذكر أن قبر داوود وسليمان حول المسجد الأقصى، وأعظم تلك البركات أن يكون هذا المكان مكان إسراء النبي صلى الله عليه وسلم، وصلاته فيه بالأنبياء كلهم، كل هذا من البركات في هذا البيت العظيم، أسال الله العظيم أن يفك أسره ويرده للمسلمين.

قال عز وجل: **{لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا}** هذا المقصود به تعليل الإسراء، لأن الله أراد أن يري النبي صلى الله عليه وسلم الآيات الربانية، التي سيجدها من اجتماعه بالأنبياء ومن الانتقال حكم عظيمة.

الله عز وجل أرى رسوله من دلائل رحمته وقدرته، وأراه المسجد الأقصى فإنه إذا سئل وصفه سيصفه، وهذه الآيات العظيمة كانت تثبيتا لنبينا الكريم، وله في ذلك أسوه لأن الله عز وجل قال في حق إبراهيم عليه السلام: **{وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين}**، والفطرة تجعل المحسوسات أثبت، وكلما وجد الإنسان الآيات كلما زاد اليقين واليقين بابه واسع.

وتقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية، لأنه بمقدار قوة يقينهم يزدادون في الصبر والبيان والإرشاد.

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فعلم من ذلك أنه تعالى سميع لأقوال الخلق بصير لأحوالهم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم ماذا سيقولون على هذا الوحي وهذا الإسراء، ويبصر تكذيبهم وحالهم، وهو كامل الصفات سبحانه وتعالى يعامل خلقه بآثار صفاته.

ثم يقول عز وجل: **{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}** الواو موقعها هنا موقع عجيب، فقد عطف بإيتاء موسى الكتاب على إسراء النبي صلى الله عليه وسلم، فكأنه يقال: الله أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وآتى موسى الكتاب، وهذه منن عظيمة.

وأما الخبر عن موسى مناسبته لأن له صلة بالمسجد الأقصى، فما حصل من صلاح وفساد إنما هو متصل بحال بني إسرائيل، وقوة إيمانهم بموسى عليه السلام وضعف إيمانهم به، وهذا موطن للاعتبار، لأن المسلمين إذا نظروا إلى حال اليهود وكيف قد سلط عليهم وكيف هزموا ثم نصروا يقتدوا ويحذروا.

والمقصود هنا {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} المقصود به التوراة.

{وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} فالله جعل ما في الكتاب هدى لبني إسرائيل ليصلوا به إلى مرضاة الله، فإن رضي الله سخر لهم كل شيء وإن سخط سلط عليهم كل شيء.

{أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} فالله آتاهم الكتاب لئلا يتخذوا من دونه وكيلا يفوضون إليه الأمر، فما العلاقة بين إتيان الكتاب وأن لا يتخذ الإنسان من دون الله وكيلا ؟ هذا يظهر لمعرفة أن الكتب معرفة بالرب فإذا عرف الخلق الله بكماله وجلاله وتدبيره لشؤونهم، استحوا أن يتخذوا من دونه وكيلا، بل كان الواجب عليهم تحقيق التوحيد بالاعتماد على الله، ومعرفة أن كل خير بيد الله، ودفع كل ضر بيده، وأسباب جلب كل خير بيده وأسباب دفع كل ضر بيده، فاتخذوه وكيلا بسبب معرفتهم له من خلال كتابه.

وهذه حقيقة أعظم المنن على الخلق أن يكونوا في الأرض جاهلين فيعرفهم بلطفه رب العالمين، بأن يكونوا ضالين فيبين لهم صفات كماله التي يبتغون بها إلى رضاه، وهذا من أعظم ما يشكر عليه سبحانه وتعالى، فلذا نحن نستفتح بالحمد لله رب العالمين نثني عليه لما عرفناه نرى أن أعظم النعم أننا عرفناه أنه أعاننا على الذل والانكسار له، نسأل الله أن يعيننا على طاعته وعبادته والإخلاص له.

{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} فالمقصود والله أعلم أن هذه الذرية بني إسرائيل إنما كانوا من ذرية نوح عليه السلام، بمعنى أن في زمن نوح حصل الغرق، فكل من جاء بعد نوح فهو من ذرية نوح عليه السلام، فكأنه يقال يا ذرية من حملنا مع نوح، ونوح كان عبدا شكورا كونوا عبادا شاكرين.

فلو طابقنا بين هذه الآية والتي قبلها لوجدنا أنه كان عبدا شكورا، تعلل أنه لا نتخذ من دونه وكيلا.

فلو نظرتم إلى أجدادكم كيف حملوا مع نوح، ما نجاهم إلا الله، ليس عليهم إلا نعمة الله، فلما نجو عرفوا أن كل شيء من الله، فشكروا الله وانتم تبقون على ذلك.

أن الحقيقة ما بي من نعمة فمن الله، فاقتدوا بهم ولا تكفروا نعم الله.

ومن قرأ في التاريخ علم أن ذرية سام بن نوح منها تأتي بنو إسرائيل، وسام ابن نوح كان ممن ركب السفينة، المقصود أن التذكير بالآباء حمل للأبناء على وصفهم، فأنتم ممن أنجاكم الله من ذرية نوح، وكان ابنه هذا ممن بر وأطاع وحملته السفينة، ولستم بفضل الله من الشق الثاني الذي غرق، فاقتدوا بآبائكم أو تكادون تهلكون.

وهنا لطيفة جميلة التذكير بالآباء وبالخير الذي كانوا فيه سبب للاقتداء، فالاقتداء بالآباء شيء مجبول في النفس، وهو محل تنافس لمن استقام فكره، ومن رأيت فيه نخوة غير سوية تقول له أنت متأكد أنك ابن فلان! أنك عربي! أنك مسلم! طبعا مسلم هذه الصفة العامة، المقصود أن الآباء بالنسب.

ويأتي هنا الخبر عن بني إسرائيل مرة أخرى، يعني هذه الآية الثالثة تذكير لبني إسرائيل بأصولهم التي كانوا فيها شاكرين، ثم قال عز وجل: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ} ، {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} يعني آتينا موسى الكتاب هدى، وبينا لبني إسرائيل في الكتاب ما يحل عليهم إذا خالفوا كتابهم، وهذا لنا شأن واضح، انظروا بنو إسرائيل قد بين لهم ما يحل عليهم إن خالفوا كتابهم، وهذا أيضا لكم أنتم اعلموا أن من خالف كتابه سيكون هذا حاله.

ثم قال: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ} معناها أنهم أتتهم الأخبار عن الحوادث العظيمة، وأنه سيسلط عليهم أعداء إن خالفوا أمر الله، {لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} هذه إشارة إلى حوادث عظيمة من بني إسرائيل، يشترك فيها البابليون والرومان، بمعنى نوع اندرج تحت البابليون، ونوع اندرج تحت الرومان، وهذا كما مر معنا المرة الأولى مجموعة حوادث متسلسلة، كان فيها بخت نصر الحامل على بني إسرائيل، أثر جماعات كثيرة من اليهود، ثم غزاهم أيضا مرة أخرى أشد من المرة التي قبلها، وأسر ملك اليهود وجمع غفير من الإسرائيليين، وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان ومرة وما فيه من الأنية النفيسة، ومره أخرى ثالثة في المرة الأولى غزاهم بخت نصر وسبا كل الشعب، وأحرق هيكل سليمان وأبقى القدس خرابا يبابا، ثم أعادوا تعميرها، ثم المرة الثانية تكلمنا عن الرومان وهي التي سيأتي الكلام عنها {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ}.

فالمقصود أن الله عز وجل نبههم أن هذا يقع عليهم بسبب مخالفتهم لكتابهم {لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ}هذا الذي يحصل منهم {وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} ماذا فعلوا {فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ} معناها هذا جزاء لأي شيء؟ جزاء لوقوع العلو من بني إسرائيل، وهذا معناه أن عددا كبيرا منهم وقع في هذا العلو، وان كانت بلدهم لا تخلوا من صالحين لكن غير مصلحين، أو يكونوا صالحين يبذلون جهودهم لكنهم مع كثرة الفساد ذهب الخير.

إذا الأمر الأول الذي فعلوه أفسدوا، والأمر الثاني علو أي :جاوزوا الحد في الطغيان والعصيان، وشابهوا فرعون الذي علا في الأرض.

مع أنهم كان لابد أن يكونوا أكثر الناس حذرا من الإفساد والعلو؛ لأنه كما ذكر الله في سورة القصص {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} القصص: 4 وهم فعلوا مثلما فعل فرعون.

فقال الله عز وجل: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا} يعني موعد أولى المرتين، يعني الزمن الذي قدره الله لحصول المرة الأولى من الإفساد والعلو، {بَعَثْنَا} ومعناه: أن الله هيأ أسباب حصول التخلط {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} العباد يعني سيكونون مملوكين لله، يعني هم عبيد لله، لكن سلطهم الله عليكم، لا يخرجون من أمر الله وهذا جزاء من الله عليكم، وهم وكما تبين لنا الآشوريين، الذين هم أهل بابل جنود بخت نصر، {أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} لهم شوكة وشدة في الحرب.

{فَجَاسُواْ} يعني تخللوا في الأرض، وطرقها ذهابا وإيابا، وقاتلوكم بمعنى عبثوا {خِلالَ الدِّيَارِ} بمعنى في وسط ديارهم والمقصود القدس فدخل بخت نصر وسبى وقتل الرجال ودمر الديار وأحرق المدينة وأحرق هيكل سليمان، والمقصود به بيت العبادة فخلت بلاد اليهود منهم.

{وكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً} معناها أن الله أذن برجوع بني إسرائيل غلى القدس، وذلك بتغلب ملك الفرس على ملك بابل، وهذا بعد أكثر من أربعين سنة، كانوا في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرطوا، سلط الله ملوك فارس على ملوك بابل، فهزموهم وضعف سلطانهم فأتى ملك فارس وفتح بابل، ومن ثم أذن لليهود بالرجوع للقدس وأن يجددوا دولتهم.

{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا} يعني من جهة عشيرتهم وأقوامهم وعددهم فصاروا أكثر مما كانوا قبل الجلاء فامتن الله عليهم بأن كثرهم فكنتم أكثر نفيرا من أعدائكم الذين أخرجوكم وقيل لهم {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} هذا مما خوطب به بنو إسرائيل في كتبهم وقيل لنا مثل ما قيل لهم بمعنى أنكم لما تبتم ورجعتم إلى ربكم أعادكم وجعلكم في حال حسنة فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم نهلككم بذنوبكم وكما أحسنا لكم بالتوبة نحسن إلى كل من تاب فكونوا على حذر من وقوع البلاء عليكم.

ثم قال: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ } هنا المرة الثانية الأخيرة جاء وعدها {لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا} إذًا هذه الأمور التي حصلت بسبب أنهم عادوا مرة أخرى للعلو والإفساد والمعنى أنه إذا وقع منكم مرة أخرى نفس الأمر بعثنا عليكم عبادا لنا يسوؤوا وجوهكم فالمر ة الأولى أساؤوا دخلوا المسجد وهدموه وجاسوا خلال الديار. والمرة هذه غير الذين دخلوا المسجد المرة السابقة تفلتوا عليهم وفعلوا بهم الأفاعيل، وأوقعوا بهم المأساة فوقع الغم والحزن على وجوههم ودخلوا المسجد دخول غزو وتبروا ما علوا تتبيرا يعني: أهلكوا وأفسدوا وغلبوا كل ما استطاعوا أن يفعلوه وكانوا أوقعوا الإستيلاء والغلبة على كل شيء، وهذه المرة لم يعدهم مثل المرة الأولى إنما كان ترجية لهم في وقوع الرحمة.

{عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا} وكأن في هذا إيماء وإشارة أنه لا ملك بعد ذلك بعد المرة الأخيرة لا ملك لهم فإن ما اقترفه اليهود من مفاسد وقتل الأنبياء والصالحين والتمرد والاعتداء على عيسى وأتباعه، هذا كله سبب أن يحصل لهم هذا فقد آذو زكريا وقتلوا يحي وأساؤوا إلى عيسى. فأتى الرومان أهلكوهم فاليهود بعد ما عادوا إلى القدس وجددوا ملكهم وأطلق لهم التصرف في بلادهم. في الأول كان البابليون لهم التصرف فيها وهذا كله تحت الفرس، فبقوا أكثر من مئتي سنة بهذه الطريقة ثم أتى الفساد فبدأ في ملكهم الانحلال بهجوم ملوك مصر عليهم، فصاروا تحت سلطانهم وعادوا مرة أخرى للقتال وأتاهم من ينصرهم وتسلسل الملك عندهم في زمن مليء بالفتن.

إلى أن دخلوا تحت ملك الرومانيين وحاولوا أن يتمردوا فأرسل إليهم من خرب القدس وأحرق المسجد وأسر أكثر من تسعين ألفا من اليهود، وقُتل في هذه الحروب نحو مئة ألف منهم ! وبقي منهم شرذمة قليلة، فهدموا الديار وخربوها، حتى أنهم كانوا يرمون الملح على الأرض لكي لا تصلح للزراعة، فانقرض شأن اليهود وتفرقوا في الأرض، ولم تخرج القدس بعد ذلك من حكم الرومان إلا عندما فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب.

قيل لهم: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ} لم يوعدوا بالملك، {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} يعني إذا رحمكم ربكم وأمّنكم في بعض البلاد التي تلجؤون إليها، فإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم في الدنيا قبل الآخرة.

ثم قال عز وجل: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا} وكأنه يقال لهم هذا إنما كان عقاب في الدنيا، لكن وراءه ما هو أعظم منه وهو عقاب الآخرة وعقاب الآخرة ليس له دافع.

وإذا أفسدتم في الأرض كان الجزاء أن ينزع منكم ملككم، أما إذا كفرتم وكذبتم بالرسل كما فعلتم بتكذيبكم بعيسى وبالرسول صلى الله عليه وسلم فإن ليس لكم إلا جهنم حصيرا، بمعنى أنكم تحصرون فيها ولا تجدون الخروج منها، بمقابل أنكم في الدنيا ممكن أن تهربوا وتدخلون تحت حماية أحد من الخلق أما هناك فقد جعل الله جهنم للكافرين حصيرا .

هذا ما كان منهم وبعض شأنهم في الإفساد والتعدي على دين الله وكيف عاقبهم الله بنزع الملك منهم الإذلال، وهذا الخبر للمسلمين ليعلموا سنة رب العالمين ، وأنه ليس لأحد كرامة إلا بالطاعة ، فإن وقعت الطاعة وقعت الكرامة، وإن وقع الخلق في الإفساد فكان حق أن يذلهم الله.

ربنا سبحانه وتعالى قصّ علينا في كتابنا ما يجعلنا نعرف أحوال من سبقنا، وأخبرنا أنهم لما بغو ا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم وكان هذا جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فنحن ننتفع مما حكاه لنا ربنا ونعلم أن القوم قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء، فوقع عليهم ما وقع، فنحن علينا أن نحفظ للأنبياء الكرام مكانتهم، وللعلماء احترامهم، وننصر دين الله ونعظم شريعته ونتبع رسوله صلى الله عليه وسلم.

نسأل الله بمنه وكرمه كما امتنّ علينا بفهم هذه الآيات العظيمة أن نكون ممن تيقّن أن ربنا ليس بظلام للعبيد، وممن تيقّن أن ربنا له سنّته العظيمة التي يعامل بها خلقه ، وقد أخبرنا عن سنته فما علينا إلا ملاحظتها ومعرفة المخرج مما نحن فيه. وليس للمسلمين إلا العودة إلى كتاب الله وشريعة الله وتعظيم دين الله ونشره في الأنحاء مع الاستعانة بالله على كل ذلك.

سبحانك اللهم وبحمدك اشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.